المِرْآة المَجلُوّة
ببيان معاني الفتوّة

تأليف

السّيّد محمّد بن عبد الله بن علي العيْدروس

دار الصّلاح

المرآة المجلوّة
ببيان معاني الفتوّة

الموضوع: تزكية وأخلاق .
العنوان: المرآة المجلوة ببيان معاني الفتوّة .
المؤلف: محمد بن عبدالله بن علي العيدروس.
رقم الطبعة : الأولى .
سنة الاصدار : ١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م .
قياس القطع : ١٤×٢١
عدد الصفحات : (٤٢) صفحة .
تنسيق: دار الصلاح - اليمن- حضرموت- تريم.
جوال : ٧٣٣٨٢٢٨٣٣ - ٠٠٩٦٧.

دار الصلاح

الطبعة الأولى
١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدّمة

الحمد لله الذي جعل طريق الفتوّة سميكةَ البُنيان، عاليةَ المكان، واضحةَ البُرهان، نزيهة عن أدران الران، فرأسها الأنبياء والمرسلون، وخواصها الأولياء والصالحون، فهي من بحر النبوّة طافحة ، ولأهل الصديقية والصلاح لائحة ، ولكل من قرع بابها صالحة ، لا يدركها إلا من علت همته، ولا يتركها إلا من بانت خسته .

والصلاة والسلام على رأس الفضائل، ومقدم أهل الفواضل، سيدنا محمد ختم الرسائل وعلى آله الأماثل، وأصحابه الأوائل .

أمّا بعدُ :

فإنّه لا مزيّة للإنسان إلا بعقله وخلقه، ويظهر كمالهما بحسن معاملته وعشرته ، حتى يؤدي ما عليه على التمام ، ويشرق عليه النور بعد الظلام ، فيعيش على السلام إلى الحِمْام، فيعفو عمن ظلم، ويحسن إلى من أجرم، يرتقب العفو من الرقيب والثواب الجزيل من الحسيب.

وهذه رسالة مختصرة يدور الحديث فيها عن أهم الصفات العلية، والكمالات الإنسانية، ألا وهي الفتوة التي يدور عليها الشأن،

في بيان حقيقة الإنسان، والرجاء في الله تبارك وتعالى أن يكتب بها النفع ويجعل لها القبول.

وقد سمّاها شيخنا الحبيب العلاّمة المُربِّي عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ بن الشيخ أبي بكر بن سالم أطال الله بقاءه بـ (المرآة المجلوّة ببيان معاني الفتوة).

محمد بن عبدالله بن علي العيدروس

١٤ شعبان ١٤٣٦هـ

الفتوّة

قَالَ اللهُ تبارك وتَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]، (نسبهم إلى الفتوة لـما خاطروا بأرواحهم في طلب الحق، وآمنوا بالله وكفروا بطاغوت دقيانوس، فلما تقربوا إلى الله بقدم الفتوة تقرب إليهم بمزيد العناية، فأخرجهم من ظلمات النفسانية إلى نور الروحانية، فلما تنورت أنفسهم بأنوار أرواحهم اطمأنت إلى ذكر الله وآنست به واستوحشت عن محبة أهل الدنيا وما فيها) (١) .

أصل الفتوة

قال عنها أبو القاسم القشيري رحمه الله: أَن يكون العبد أبداً في أمر غيره . قال النبي صلى اللهُ عليه وآله وصحبه وسلَّم: «لا يَزال اللهُ تعالى في حاجة العبد ما دام العبد في حاجة أخيه المسلم»(٢).

والفتوة لا تتوقف على الجاه والمال، وإنما على شرف الأعمال والخصال. وهذا الخلق لا يكون كماله إلا لرسول الله صلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم، فإن كل أحد في القيامة يقول: نفسي نفسي، وهو صلَّى اللهُ عليه وآله وصحبه وسلَّم يقُول: «أمتي أمتي»، كما في الصحيحين .

---

(١) نقلا من كتاب روح البيان في التفسير.

(٢) أورده في كنز العمال .

تعريف الفتوّة

الفتوّة : هي أداء الإنصاف وترك مطالبة الانتصاف. فقد رُوِي: (أشرف الأَعمال ذكر الله عز وجل وإنصاف الخلق من نفسك).

وقيل: الفتوّة أن لا ترى لنفسك فضلا على غيرك .

وقيل: الفتوّة إظهار النعمة وإسرار المحنة.

وقيل: الفتوّة الصفح عن عثرات الإخوان.

وقال محمَّد بن علي الترمذي رحمه الله تعالى : الفتوة أَن تكون خصماً لربك على نفسك. وقال الجنيد رحمه الله تعالى: الفتوّة كَفُّ الأذى وبذلُ الندى. وقيل لبعضِهم: ما الفتوّة، فقال: أن لا يميِّز بين أنْ يأكل عنده ولي أو كافر.

وخلاصة الأقوال في تعريف الفتوّة ما قال عمرو بن عثمان المكي: أن الفتوّة هي : حسن الخلُق.

الفتى على الحقيقة

قيل: أن الفتى من كسر الصنم قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿سَمِعۡنَا فَتًى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ﴾[الأنبياء: ٦٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا ﴾[الأنبياء: ٥٨]، وصنم كُل إنسان نفسه فمن خالف هواه فهو فتى على الحقيقة.

قال الجوهريُّ: الفتى السخيُّ الكريمُ : يقال: هو فتًى بَيِّن الفُتُوَّة، وقد تفَتَّى وتفاتى، والجمع فتيانٌ وفتية وفتوّ . وقال أبو بكر الورّاق : الفتى من لا يكون خصما لأحد .

من أخبار الفتيان

قال ابن عمر رضي الله عنهما : أهدي لرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأس شاةٍ، فقال: إنَّ أخي فلانًا وعياله أحوج إلى هذا منَّا. فبعث به إليهم، فلم يزل يبعث به واحدٌ إلى آخر حتى تداولها أهل سبعة أبيات، حتى رجعت إلى الأوَّل، فنزلت: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[الحشر: ٩][(١)] .

وخرَجَ عبد الله بن جعفر رضي الله عنه إلى ضَيعة له، فنزل على نخيل قوم، وفيه غلام أسود يعمل فيه، إذْ أتى الغلام بقوته، فدخل الحائط كلبٌ، ودنا من الغلام، فرمى إليه الغلام بقرصٍ فأكله، ثمَّ رمى إليه الثَّاني فأكله، ثم الثَّالث فأكله، وعبد الله ينظر إليه، فقال: يا غلام، كم قوتك كلَّ يوم؟، قال: ما رأيتَ، قال: فلِمَ آثرت به هذا الكلب؟، قال: ما هي بأرض كلاب، إنَّه جاء من مسافة بعيدة جائعًا، فكرهت أن أشبع وهو جائع، قال: فما أنت صانع اليوم؟، قال: أطوي يومي هذا . فقال عبد الله بن جعفر: أُلام على السَّخاء!، إنَّ

(١) تفسير القرطبي.

هذا الغلام لأسخى منِّي. ثم إنه اشترى الغلام والحائط وما فيه من الآلات، فأعتق الغلام، ووهبَ له الحائط.

وكان قيس بن سعد بن عبادة مريضاً، فتخلف عن عيادته جمع من معارفه ، فسأل عنهم فقيل له: إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين، فقال: أخزى الله مالاً يمنع الناس من الزيارة . ثم أمر منادياً ينادي: من كان لقيس عليه مال فهو منه في حل. فكسرت عتبة داره بالعشي من كثرة عُوّاده .

وأتى رجلٌ صديقاً، ودَقّ عليه البابَ، فلما خرج إليه قال له: لماذا جئتني؟، قال: لأربعمائة درهم دين عليّ، فدخل الدار ووزن له أربعمائة درهم وسلمها له، ثم دخل الدار يبكي، فقالت امرأته: هلا تعللت واعتذرت حين شق عليك الإجابة؟، فقال: إنما أبكي لأني غفلت عنه، ولم أتفقّد حالَه حتى احتاج أن يفاجئني به .

وقيل: إن رجلا نام بالمدينة من الحاج فتوَهّم أَن همیانه- مِنْطَقَتَه- سُرِقَ، فخرج فرأى جعفرا الصادق، فتعلق به، وقال: أخذت همياني، فقال: إيش كان فيه؟، فقال: ألف دينار، فأدخله داره، ووزن لهُ ألف دينار، فرجع الرجل إلى منزله ودخل بيته فرأى همیانه في بيته وقد كان توَهّم أنَّه سُرِقَ، فخرج إلى جعفر معتذرا، ورد عليه الدنانير، فأبي أن يقبلها، وقال: شيء قد أخرجته من يدي لا أسترده، فقال الرجل: من هذا؟، فقيل له: هذا جعفر الصادق.

وقدم جماعةُ فتيانٍ لزيارة فتىً. فقال الرجلُ: يا غلامُ قدِّم السُّفرة. فلم يُقدِّم. فقالها ثانيًا وثالثًا فلم يقدِّم. فنظر بعضُهُم إلى بعض، وقالوا: ليس من الفتُوَّة أَن يستخدم الرجل من يتعاصى عليه في تقديم السُّفرة كلَّ هذا. فقال الرجل: لِمَ أبطأتَ بالسُّفرة؟ فقال الغلامُ: كان عليها نملٌ. فلم يكن من الأَدب تقديم السُّفرة إلى الفتيان مع النمل. ولم يكن من الفتُوّة إلقاءُ النمل وطردهم عن الزَّاد. فلبثتُ حتى دبَّ النملُ. فقالوا: يا غلام. مثلُكُ يخدُمُ الفِتْيَان.

وقيل: تزوّج رجل بامرأة، وقبل الدخول ظهر بالمرأة الجدري، فقال الرجل اشتكت عيني، ثُمَّ قال: لقد عميتُ، فزفت إليه المرأة، ثمَّ ماتت بعد عشرين سنة، ففتح الرجل عينيه، فقيل له في ذلك، فقال: لم أعمَ، ولكن تعَامَيتُ حذراً أَن تحزن. فقيل لهُ: سبقت الفتيان .

من دلالات الفتوة

١ـ مكارم الأخلاق:

وأعظم مكارم الأخلاق تقوى الله، ولهذا روي عن الإمام أحمد أنه سئل عن الفتوة، فقال: ترك ما تهوى لما تخشى. وهذا مأخوذ من قول الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۞ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠ – ٤١]. ولهذا يقولون: إن هذه الآية تجمع علم الطريق. وروي عن أبي هريرة أن رسول الله صلَّى اللهُ عليه وآله

وسلَّم سُئِل ما أكثر ما يُدخلُ الناس الجنة؟، فقال: «تقوى الله وحسن الخلق»، وسُئل صلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم: ما أكثر ما يُدْخل الناس النار؟، فقال: «الأجوفان: الفم والفرج»[1].

٢ـ التعفّف :

مأخوذٌ مِنْ عفّ، وهو: الكفّ عمّا لا يحل، أو الكف عما لا يجمل من قول أو عمل ، والكف عن الطمع في الغير .

وأَنشد ابْنُ الأَعرابي:

من عفَّ خفَّ على الوُجُوهِ لقاؤُهُ   وأَخُو الحوائجِ وجهُه مبذُولُ

روى البخاري في صحيحه عن أَنَس رضي اللهُ عنه: أن عبد الرَّحمن بن عوف قدم المدينة، فآخى النبي صلَّى الله عليه وآله وسلّم بينه وبين سعد بن الربيع الأَنصاري، فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله، فقال عبد الرحمن: بارك اللهُ لك في أهلك ومالك، دلني على السّوق.

وعن علي بن موسى الرضا رضي الله عنه، قال : سئل جعفر بن محمد رضي الله عنه، ما الفتوة؟، فقال: الفتوة ليست بالفسق والفجر، ولكن الفتوّة طعام مصنوع، ونائل مبذول، وبشر مقبول، وعفاف معروف، وأذى مكفوف .

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه .

وسئل أبو سعيد الخرّاز، ما الفتوّة؟، فقال: ترك المعلوم، والصبر على النفس، والإياس من الخلق، وترك السؤال والتعريض، وكتمان الفقر، وإظهار الغنى والتعفف .

٣ـ الإيثـــار:

وهو الإكرام بالخير مع الحاجة إليه . ففي صحيح البخاري: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رجلا أتى إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فبعث إلى نسائه، فقلن: ما معنا إلا الماء. فقال: «من يضيف هذا»؟، فقال رجل من الأنصار: أنا. فانطلق به إلى امرأته، فقال: أكرمي ضيف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فقالت: ما عندنا إلا قوت صبياني. فقال: هيِّئي طعامك، وأصبحي سراجك ، ونوِّمي صبيانك إذا أرادوا عشاء. فهيَّأت طعامها، وأصبحت سراجها، ونوَّمت صبيانها، ثمَّ قامت كأنَّها تصلح سراجها، فأطفأته، فجعلا يريانه أنَّهما يأكلان، وباتا طاويين - جائعين- ، فلمَّا أصبح غدا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: «ضحك اللهُ اللَّيلة (أو عجب مِن فعالكما)» ، فأنزل الله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[الحشر: ٩] .

وقد وصل الحال بصحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم أن آثروا إخوانهم بحياتهم .. وهذا غاية الجود، ومنتهى البذل

والعطاء. ففي غزوة اليرموك قال عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه: قاتلتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم في مواطن، وأفرُّ منكم اليوم؟!، ثمَّ نادى: مَن يبايع على الموت؟، فبايعه عمُّه الحارث بن هشام، وضرار بن الأزور في أربعمائة مِن وجوه المسلمين وفرسانهم، فقاتلوا قدَّام فسطاط خالد حتى أُثْبِتُوا جميعًا جراحًا، وقُتِل منهم خلقٌ، منهم ضرار بن الأزور رضي الله عنهم .. فلمَّا صرعوا مِن الجراح استسقوا ماء، فجيء إليهم بشربةِ ماء، فلمَّا قُرِّبَتْ إلى أحدهم نظر إليه الآخر، فقال: ادفعها إليه. فلما دُفِعَت إليه نظر إليه الآخر، فقال: ادفعها إليه. فتدافعوها كلُّهم - مِن واحد إلى واحد - حتى ماتوا جميعًا ولم يشربها أحد منهم رضي الله عنهم أجمعين .

وقيل: سأل شقيق البلخي جعفر الصادق بن محمد عن الفتوة، فقال له جعفر: ما تقول أنت؟، فقال شقيق: إن أعطينا شكرنا، وإن منعنا صبرنا، قال جعفر: الكلاب عندنا بالمدينة تفعل كذلك. فقال شقيق: يا ابنَ بنتِ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فما الفتوة عندكم؟، فقال : إن أعطينا آثرنا، وإن منعنا شكرنا.

ومن جميل ما يُروى في الإيثار عن سلفنا الصالح، ما رُويَ عن أبي الحسن الأنطاكي أنه اجتمع عنده نيف وثلاثون رجلًا، لهم أرغفة معدودة، لا تكفيهم شبعًا، فكسروها، وأطفأوا السراج، وجلسوا للأكل ، فلما رفعت السفرة ؛ فإذا الأرغفة محلها ، لم ينقص منها شيء،

لأنه لم يأكل منهم أحدٌ؛ إيثارًا للآخرين على نفسه حتى يأكلوا جميعًا.

٤ـ قبول العذر:

الفتى لا يُحْوِج مَن عاداه أو أساء إليه إلى معذرة، فإن جاءه معتذرا قَبِلَ عذره من غير عتاب، صدَقَ أو كذَبَ ؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من اعتذر إليه أخوه المسلم، فلم يقبل عذره، فعليه مثل صاحب مكس»[١]. ولبعضهم:

أَقبَل مَعاذيرَ مَن يَأتيكَ مُعتَذِراً　　إِن برّ عِندَكَ فيما قالَ أَو فَجَرا
فَقَد أَطاعَكَ مَن أَرضاكَ ظَاهِرُهُ　　وَقَد أَجَلَّكَ مَن يَعصيكَ مُستَتِرا

قال بعض العلماء: واعلم أنّ من أحوج عدوَّه إلى شفاعته، ولم يخجل من المعذرة إليه لم يشم رائحة الفتوّة . قال ابن القيم : يعني أن العدو متى علم أنك متألم من جهة ما نالك من الأذى منه احتاج إلى أن يعتذر إليك، ويُشَفِّع إليك شافعاً... فالفتوة كل الفتوة: أن لا تحوجه إلى الشفاعة، بأن لا يظهر له منك عتب، ولا تغير عما كان له منك قبل معاداته، ولا تطوي عنه بشرك ولا برك، وإذا لم تخجل أنت من قيامه بين يديك مقام المعتذر لم يكن لك في الفتوة نصيب.

وفي صحيح البخاري: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أخبر أنه غزا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قِبَل نجد، فلما قَفَلَ

(١) مسند أبي حنيفة، ورواه البيهقي في شعب الإيمان.

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قفَلَ معه فأدركتْهم القائلةُ في واد كثير العضاه - شجرة كثيرة الشوك - فنزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتفرق الناس يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تحت سمرة، فعلّق بها سيفه. قال جابر: فنمنا نومة ثم إذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدعونا، فجئناه، فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتا، فقال لي: من يمنعك مني؟، قلت: الله، فها هو ذا جالس». ثم لم يعاقبه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وعن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: يا رسول الله، هل أتى عليك يوم كان أشدّ من يوم أحد؟، فقال لها: «لقد لقيت من قومك ما لقيت، فكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إنّ الله قد سمع قول قومك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. قال: فناداني ملك الجبال، فسلّم علي ثم قال: يا محمد، إنّ الله قد سمع قول قومك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين - الجبلين-، فقال

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: بل أرجو أن يخرج اللهُ من أصلابهم من يعبد الله وحده، ولا يشرك به شيئا»[1].

وسيدنا يوسف على نبينا وعليه الصلاة والسلام يوم أن عرف إخوته ما وصل إليه أمره سامحهم وقال لهم: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

٥ـ النصح :

لأنّ في النصْح للنَّاس أن تحب لهم ما تحب لنفسك، وتكره لهم ما تكره لنفسك، وهذه أخلاق الكرام وبضدها أخلاق اللئام .

قال عمر بن الخطاب لسلمان الفارسي رضي الله عنهما وقد قدم عليه: ما الذي بلغك عني مما تكره؟، فاستعفى منه، فألحّ عليه، فقال: بلغني أن لك حلتين تلبس إحداهما بالنهار والأخرى بالليل، وبلغني أنك تجمع بين إدامين على مائدة واحدة، فقال عمر رضي الله عنه: أما هذان فقد كفيتهما، فهل بلغك غيرهما؟، فقال : لا .

٦ـ الستر والغفر :

ففي الستر والغفر سخاء النفس عما اعتاص عليها . فعن الحسن رضي الله عنه قال: (أفضلُ أخلاق المسلمين العفو).

---

(١) متفق عليه.

وقال الفضيل رحمه الله: الفتوَّة العفو عن زلات الإخوان.

ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «استعيذوا بالله من جار السوء، الذي إن رأى خيرًا ستره، وإن رأى شرًّا أظهره» . أخرجه البخاري في التاريخ من حديث أبي هريرة.

وللنسائي من حديث أبي هريرة وأبي سعيد بسند صحيح: «تعوذوا بالله من جار السوء في دار المقام».

وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله: (المؤمن طالب عذر إخوانه، والمنافق طالب عثراتهم).

٧ـ العلم :

لكون العلم يحمل صاحبه على الانصاف، ويورثه أعلى المراتب بعد الأنبياء، كما قال ابن المبارك رحمه الله: ما رأيت بين الفتوة والقراءة فرقاً إلا في شيء واحد ما حظرت القراءة شيئاً إلا قبحته الفتوة، وإنما يفترقان في أن القراءة يراد بها وجه الله تعالى، والفتوة يراد بها وجوه الناس ومدحهم.

وقد كان سفيان الثوري رحمه الله يقول: من لم يحسن يتفتى لم يحسن يتقرّى. أيّ: من لم يعرف أحكام التفتي فيقوم بها حتى يستحق وصف فتى، لم يحكم أوصاف التقري حتى يوصف بأنه قارئ.

٨ـ كرم الصحبة:

وذلك مع القيام بحسن الأدب فيها، وهو أن يصحب من فوقه بالتعظيم، ويصحب أشكاله بالموافقة والألفة، ويصحب من دونه بالعطف والشفقة والرحمة، ويصحب الوالدين بالخضوع والمطاوعة، ويصحب الأولاد بالرحمة وحسن التأديب، ويصحب الأهل بحسن المداراة، ويصحب الأقارب بالبر والصلة، ويصحب الإخوان بصدق المودة ودفع المجهود في المحبة، ويصحب الجيران بكف الأذى، ويصحب العامة ببشاشة الوجه ولين الكف، ويصحب الفقراء بتعظيم حرماتهم ومعرفة أقدارهم، ويصحب الأغنياء بإظهار الاستغناء عنهم، ويصحب العلماء بقبول ما يشيرون به عليه، ويصحب الأولياء بالتذلل والانقياد لهم وترك الإنكار عليهم، ويجتنب في أوقاته صحبة المبتدعين والمدعين والمتظاهرين بالزهد رغبةً في استتباع الناس وأخذ ما في أيديهم.

٩ـ الشفقة على الإخوان:

وذلك في كل الأحوال وأن يخلص لإخوانه ظاهراً وباطناً ومغيباً ومشهدا. قال بعض الحكماء: إنّ من واجب الإخوة على الفتيان مودة الأخ لأخيه بقلبه خالصاً، وتزينه بلسانه، ورفده بماله، وتقويمه بأدبه، وحسن الذّب عنه في غيبته .

وسئل الإمام الجنيد رحمه الله تعالى عن الشفقة على الخلق فقال: أن تعطيهم من نفسك ما يطلبون، ولا تحملهم ما لا يطيقون، ولا تخاطبهم بما لا يعلمون.

وسئل بعضهم: كيف شفقتك على إخوانك؟، فقال: إن الذباب ليسقط على وجهه، فأجد لذلك ألماً. وأنشد في معناه:

وأشفق أن تمشي على الأرض غيرة   فليتك خدي ما حييت وطيتا

وسئل رُوَيم رحمه الله تعالى: كيف شفقتك على إخوانك؟، فقال: يا أخي، اعلم أنه ما سرني شيء في الدنيا إلا سرور إخواني، ولا أحزنني منها شيء إلا ما حزنوا عليه.

وسئل بعض الفتيان: كيف محبتك لإخوانك؟، وكيف شفقتك عليهم؟، فقال: أحسد عيني إذا أبصرتهم، كيف لا تكون جوارحي كلها عيوناً فتبصرهم؟!، وأحسد سمعي إذا سمع كلامهم، كيف لا تكون جوارحي كلها سمعا .

قلب الفتوّة

قال صاحب المنازل: قلب الفتوَّة وإنسان عينها: أن تفنى بشهادة نقصك وعيبك عن فضلك، وتغيب بشهادة حقوق الخلق عليك عن شهادة حقوقك عليهم.

والنَّاس في هذا مراتب:

أشرفها: أهل هذه المرتبة المذكورة سابقا. **وأَخسُّها:** عكسهم. وهم: أهل الفناء في شهود فضائِلِهم عن عيوبهم، وشهود حقوقهم على النَّاس عن شهود حقوق النَّاس عليهم. **وأَوسطهم:** من شهد هذا وهذا. فيشهد ما فيه وفيهم من العيب والكمال. ويشهد حقوق النَّاس عليه وحقوقه عليهم. ثم قال:

[درجات الفتوَّة]

[الدَّرجة الأولى ترك الخصومة]

قال: وهي على ثلاث درجات. الدَّرجة الأُولى: ترك الخصومة، والتَّغافل عن الزَّلة، ونسيان الأَذيَّة.

هذه الدَّرجة من باب التَّرك والتّخلِّي. وهي أَن لا يخاصم أَحدًا. فلا ينصِّب نفسه خصمًا لأَحد غيرها. فهِي خصمه.

وهذه المنزلة أَيضًا **ثلاث درجات:** لا يخاصم بلسانه. ولا ينوي الخصومة بقلبه. ولا يخطرها على باله. هذا في حقِّ نفسه.

وأما في حقِّ ربِّه: فالفتوَّة أَن يخاصم بالله وفي الله. ويحاكم إلى الله، كما كان النّبيّ صلَّى اللهُ عليه وآله وسلم يقول في دعاء الاستفتاح: «وبك خاصمت، وإليك حاكمت»، وهذه هي درجة فتوَّة العلماء الدُّعاة إلى الله تعالى.

وأمَّا التَّغافل عن الزلَّة فهو: أنَّه إذا رأى من أَحد زلَّة يوجب عليه الشَّرع أخذه بها أظهر أنَه لم يرها؛ لئلَّا يعرِّض صاحبها للوحشة، ويريحه من تحمُّل العذر.

وفتوّة التَغافل: أرفع من فتوَّة الكتمان مع الرؤية. قال أَبو علي الدقاق: جاءت امرأة فسألت حاتماً عن مسأَلة، فاتفق أَنه خرج منها صوت في تلك الحالة، فخجلت، فقال لها حاتم: ارفعي صوتك. فأوهمها أنه أَصم، فسرَّت المرأة بذلك، وقالت: إنه لم يسمع الصوت. فلُقّب بحاتم الأصم. وهذا التغافل هو نصف الفتوّة.

وأما نِسيان الأَذيَّة فهو: بِأن تنسى أذيَّة من نالك بِأذى، ليصفو قلبك له، ولا تستوحش منه.

وهناك نسيان آخر أيضا، وهو من الفتوَّة، وهو نسيان إحسانك إلى من أحسنت إِليه، حتَّى كأنه لم يصدر منك. وهذا النسيان أَكمل من الأَوّل. وفيه قيل:

يَنسى صنائعَهُ واللهُ يظهرُها إنَّ الجميلَ إذا أخفيتَه ظهرا

[الدرجة الثانية أن تقرّب من يقصيك]

قال: الدرجة الثانية أن تقرِّبَ من يقصيك، وتكرم من يؤذيك، وتعتذر إلى من يجني عليك، سماحةً لا كظما، ومودّة لا مصابرة. هذه الدرجة أعلى ممَّا قبلها وأصعب. فإنَّ الأولى: تتضمّن ترك المقابلة

والتغافل، وهذه تتضمّن الإحسان إلى من أساء إليك، ومعاملتَه بضدِّ ما عاملك به، فيكون الإحسان والإساءة بينك وبينه خطَّتين، فخطَّتك: الإحسانُ، وخطَّته: الإساءةُ. وفي مثلها قال القائل:

إذا مرضنا أتيناكم نعودكُمُ وتذنبونَ فنَأتيكم ونعتذرُ

ومن أراد فهم هذه الدرجة كما ينبغي فلينظر إلى سيرة النَّبي صلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم مع النَّاس يجدها هذه بعينها. ولم يكن كمال هذه الدرجة لأحد سواه. ثم للورثة منها بحسب سهامهم من التركة.

وأما الاعتذار إلى من يجني عليك فإنه غير مفهوم في بادي الرأي، إذ لم يصدر منك جناية توجب اعتذارًا، وغايتك: أنك لا تؤاخذه. فهل تعتذر إليه من ترك المؤاخذة.

ومعنى هذا: أنك تنزل نفسك منزلة الجاني لا المجني عليه. والجاني خليق بالعذر.

والذي يشهدك هذا المشهد: أنك تعلم أنه إنما سُلِّط عليك بذنب، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

فإذا علمت أنك بدأت بالجناية فانتقم بالله منك على يده كنت في الحقيقة أولى بالاعتذار.

[الدرجة الثالثة أن لا تتعلق في السير بدليل]

قال: الدّرجة الثالثة أن لا تتعلَّق في السير بدليل، ولا تشوب إجابتك بعوض، ولا تقف في شهودك على رسم.

هذه ثلاثة أمور اشتملت عليها هذه الدرجة.

أما عدم تعلقه في السّير بدليل: فقد بين مراده به في آخرِ الباب ، إذ يقول: وفي علم الخصوص: من طلب نور الحقيقة على قدم الاستدلال لم يحل له دعوى الفتوَّة أبدًا. وهذا موضع عظيم يحتاج إلى تبيين وتقدير.

والمراد: أن السائر إلى الله يسير على قدم اليقين، وطريق البصيرة والمشاهدة. فوقوفه مع الدليل: دليل على أنّه لم يشمَّ رائحة اليقين .. حتى لقد قال بعضهم: كيف أطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء؟. فتقيّد السائر بالدليل وتوقفه عليه، دليل على عدم يقينه. بل إنما يتقيَّد بالدليل الموصل له إلى المطلوب بعد معرفته به. فإنه يحتاج - بعد معرفته - إلى دليل يوصله إليه، ويدله على طريق الوصول إليه. وهذا الدليل: هو الرسول صلّى اللهُ عليه وآله وسلّم. فهو موقوف عليه يتقيد به. لا يخطو خطوة إلا وراءه.

وأيضا فالقوم يشيرون إلى الكشف، ومشاهدة الحقيقة. وهذا لا يمكن طلبه بالدليل أصلا. ولا يقال: ما الدليل على حصول هذا؟،

وإنما يحصل بالسلوك في منازل السير، وقطعها منزلة منزلة، حتى يصل إلى المطلوب. فوصوله إليه بالسير لا بالاستدلال، بخلاف وصول المستدل. فإنه إنما يصل إلى العلم، ومطلوب القوم وراءه. والعلم إنما هو منزلة من منازلهم، ولهذا يسمون أصحاب الاستدلال: أصحاب القال. وأصحاب الكشف أصحاب الحال. والقوم عاملون على الكشف الذي يحصل نور العيان، لا على العلم الذي قد ينال بالاستدلال والبرهان.

أما قوله: ولا تشوب إجابتك بعوض: أَي تكون إجابتك لداعي الحقِّ خالصة، إجابة محبَة ورغبة، وطلب للمحبوب ذاته، غير مشوبة بطلب غيره من الحظوظ والأعواض، فإنه متى حصل لك حصل لك كل عوض وكل حظ به وكل قسم، كما في الأثر الإلهي: «ابن آدم، اطلبني تجدني، فإن وجدتني، وجدت كل شيء، وإِن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء».

وأما قوله: ولا تقف في شهودك على رسم. فيعني: أن لا يكون منك نظر إلى السوى عند الشهود " . اهـ بتصرف يسير.

من موجبات الفتوة

قال أبو عبد الرحمن السلمي: " من موجبات الفتوة: الصدق، والوفاء، والسخاء، وحسن الخلق، وكرم النفس، وملاطفة الإخوان،

ومعاشرة الأصحاب، ومجانبة سماع القبيح، والرغبة في اصطناع المعروف، وحسن المجاورة، ولطف المحادثة، وكرم العهد، والإحسان إلى من ولاك الله أمره من الأهل والعبيد، وتأديب الأولاد، والتأدب بالأكابر، والتباعد عن الحقد، والغش، والبغضاء، والموالاة في الله، والمعاداة في الله، والتوسعة على الإخوان في ماله وجاهه، وترك الامتنان عليهم بذلك، وقبول المنة ممن انبسط إليه في ماله وجاهه، والقيام بخدمة الأضياف، وإعطاء المنة لهم في إجابتهم وتحرمهم بطعامه، والسعي في حوائج الإخوان بنفسه وماله، ومكافأة الإساءة بالإحسان، والتهاجر بالتواصل، وملازمة التواضع، ومجانبة الكبر، وترك الإعجاب بأحواله وأسبابه، وبر الوالدين، وصلة الأقارب، والغض عن مساوئ الإخوان، وستر قبائحهم، والنصيحة لهم في الخلوة، والدعاء لهم في جميع الأوقات، ورؤية أعذار الخلق فيما هم فيه، وملازمة اللائمة على نفسه لما تيقن من شرها وغدرها والتآلف مع الخلق، والشفقة على المسلمين والملاطفة معهم، والإحسان إليهم، والرحمة على الفقراء والإشفاق على الأغنياء، والتواضع للعلماء، وقبول الحق ممن يسمع، وحفظ اللسان عن الكذب والغيبة، وحفظ السمع عن سماع الخنا، وغض البصر عن المحارم، والإخلاص في الأعمال، والاستقامة في الأحوال، ومراعاة الظاهر، ومراقبة الباطن، ورؤية الخير في الخلائق، وصحبة الأخيار، ومجانبة الأشرار.

والإعراض عن الدنيا، والإقبال على الله تعالى، وترك المرادات، وخلو الهمة عن التدنس بهذه الفانية، والتعزز بمجالسة الفقراء، والترقي عن تعظيم الأغنياء لسبب غنائهم، يكون غناه بربه، ويكون شاكراً في غناه، وقول الحق من غير مبالاته للائمة، والشكر على المحاب، والصبر على المكاره، والتباعد عن الخيانة، وكتمان الأسرار، والرضا بالدون من المجلس، وترك مطالبة حقوقه واستيفاء حقوقهم ومطالبة النفس بذلك، وحفظ حرمات الله في الخلوات، والمشورة مع الأصحاب، والاعتماد على الله دون غيره عند العدم، وقلة الطمع، والتعزز بالقناعة، وتحمل مؤن الخلق، وحمل مؤونته عنهم، ومعرفة حرمة الصالحين، والشفقة على المذنبين، والاجتهاد أن لا يتأذى به أحد، وأن لا يخالف ظاهره باطنه، ويكون لصديق صديقه صديقاً، ولعدو صديقه عدواً، وأن لا يغيره نأي الدار ولا بعد المزار".

المروءة من الفتوة

تعريف المروءة: هي التخلق بأخلاق أمثالك، قال تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٤].

قال النصرأباذي: المروءة شعبة من الفتوّة، وهو الإعراض عن الكونين والأنفة منهما . وقال الفقهاء في حدِّها: هي استعمال ما يجمِّل العبد ويزيِّنه ، وترك ما يدنِّسه ويشينه .

قال الفضيل: المروءة الاستغناء عن الناس.

وقال بعضهم: المروءة صدق اللسان، واحتمال عثرات الاخوان، وبذل المعروف لأهل الزمان، وكف الأذى عن الجيران .

وقال بعضهم: المروءة ثلاثة أشياء: الخلق، الصدق، الرفق.

وكان فتى من طيء يجلس إلى الأحنف، وكان يعجبه، فقال له يومًا: يا فتى، هل تزين جمالك بشيء؟ قال: نعم، اذا حَدَّثت صدقت، واذا حُدِّثت استمعت، واذا عاهدت وفيت، واذا وعدت انجزت، واذا اؤتمنت لم أخن. فقال له الأحنف: هذه المروءة حقًا .

حقيقة المروءة: أن يتصف بحقيقة الإنسانية بأن يستجيب لداعية الحقّ التي يدعوه للتخلق بأخلاق الملائكة، فيبرأ من داعية الشيطان للرعونات وداعية النفس للشهوات .

قال بعضُ السَّلف: خلق اللهُ الملَائِكة عقولًا بلا شَهوةٍ. وخلق البهائمَ شهوةً بلا عقول. وخلق ابن آدم وركَّب فيه العقلَ والشَّهوة. فمن غلب عقله شهوته : التحق بالملائكة. ومن غلبت شهوتُهُ عقلَهُ: التحق بالبهائم.

وقال بعض العلماء: وحقيقة المروءة تجنُّب الدَّنايا والرَّذائل ، من الأَقوال، والأَخلاق، والأَعمال .

فمروءةُ اللِّسان: حلاوته وطيبه ولينه، واجتناء الثِّمار منهُ بسهولة ويسر. **ومروءة الخُلُق:** سعتُهُ وبسطه للحبيب والبغيض .

ومروءة المال: الإِصابة ببذله مواقعَهُ المحمودة عقلًا وعرفًا وشرعًا . **ومروءة الجاه :** بذله للمحتاج إليه .

ومروءة الإحسان: تعجيله وتيسيره، وتوفيره، وعدم رؤيته حال وقوعه، ونسيانه بعد وقوعه .

وأمَّا مروءة التَّرك: فترك الخصام، والمعاتبة، والمطالبة والمماراة، والإغضاء عما يأخذه من حقِّك، وتركُ الاستقصاء في طلبه، والتَغافُلُ عن عثرات النَّاس، وإشعارهم أنَّك لا تعلم لأَحدٍ منهم عثرة أصلا، والتَّوقير للكبير، وحفظُ حُرمَة النَّظير .

وقال الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه ورضي عنه:" سِتّ من المُرُوءة: ثلاثة في الحضَر، وثلاثة في السفر: فأما التي في الحضَر: فتلاوة كتاب الله، وعمارة مساجد الله، واتخاذ الإخوان في الله. وأما التي في السّفر: الزَّاد، وحسن الخلق، والمزاح في غير معاصي الله ".

المروءة عند الأكابر: حكى ابن كثير في البداية والنهاية عن الحارث الأعور أن عليًّا كرّم الله وجهه سأل ابنه - يعني الحسنَ - عن أشياء من المروءةِ، فقال: يا بنيَّ ما السدادُ؟، قال: يا أبتِ السداد دفع المنكر بالمعروف. قال: فما الشرف؟، قال: اصطناع العشيرة وحمل

الجريرة. قال: فما المروءة؟، قال: العفاف وإصلاح المرء ماله. قال: فما الدنيئة؟ قال: النظر في اليسير ومنع الحقير. قال: فما اللومُ؟، قال: احتراز المرء نفسه وبذله عرسه. قال: فما السماحةُ؟، قال: البذل في العسر واليسر. قال: فما الشحُّ؟، قال: أن ترى ما في يديك سرفاً وما أنفقته تَلَفًا. قال: فما الإخاءُ؟، قال: الوفاء في الشدَّة والرخاء. قال: فما الجبنُ؟، قال: الجرأة على الصديق والنكول عن العدوِّ. قال: فما الغنيمةُ؟، قال: الرغبة في التقوى والزهادة في الدنيا. قال: فما الحِلْمُ؟، قال: كظم الغيظ وملك النفس. قال: فما الغنى؟، قال: رضى النفس بما قسم اللهُ لها وإن قلَّ، فإنما الغنى غنى النفس. قال: فما الفقرُ؟، قال: شره النفس في كل شيء. قال: فما المنعةُ؟، قال: شدَّةُ البأس ومقارعة أشدِّ الناس. قال: فما الذلُّ؟، قال: الفزع عند المصدوقية. قال: فما الجرأةُ؟، قال: موافقةُ الأقران. قال: فما الكلفةُ؟، قال: كلامُك فيما لا يعنيك. قال: فما المجدُ؟ قال: أن تعطي في الغرمِ وأن تعفو عن الجُرْمِ. قال: فما العقل؟ قال: حفظ القلب كل ما استرعيته. قال: فما الخرْقُ؟ قال: معاداتك إمامكَ ورفعك عليه كلامكَ. قال: فما الثَّناءُ؟، قال: إتيان الجميل وترك القبيح. قال: فما الحزْمُ؟ قال: طول الأَنَاةِ، والرفق بالولاة، والاحتراس من النَّاس بسوء الظنِّ هو الحزْمُ. قال: فما الشرفُ؟، قال: موافقة الإخوان، وحفظ الجيران. قال: فما السفهُ؟، قال: اتّباع الدناةِ، ومصاحبة الغواةِ. قال: فما الغفلةُ؟ قال: تركُكَ

المسجدَ وطاعتُكَ المفسِدَ. قال: فما الحرمانُ؟، قال: تركُكَ حظَّكَ وقد عرض عليك. قال: فمن السيِّدُ؟، قال: الأحمقُ في المالِ المتهاونُ بعرضهِ- يُشتم فلا يجيب-، المتحرّن بأمرِ العشيرةِ هو السيِّدُ.

قال ثمَّ قال عليٌّ كرّم الله وجهه: يا بنيَّ سمعتُ رسول الله صلى اللهُ عليه وآله وسلم يقول: «لا فقر أشدُّ من الجهل، ولا مال أفضل من العقل، ولا وحدةَ أوحش من العجب، ولا مظاهرة أوثق من المشاورة، ولا عقل كالتدبير، ولا حسب كحسن الخُلُقِ، ولا ورع كالكفِّ، ولا عبادةَ كالتفكُّرِ، ولا إيمان كالحياءِ، ورأسُ الإيمان الصبرُ، وآفة الحديث الكذب، وآفة العلم النسيان، وآفة الحِلْمِ السفه، وآفة العبادة الفترة، وآفة الطرف الصلف، وآفة الشجاعة البغي، وآفة السّماحة المن، وآفة الجمال الخيلاء، وآفة الحب الفخر».

ثمَّ قال عليٌّ كرّم الله وجهه: يا بنيَّ لا تستخفنَّ برجل تراه أبداً، فإن كان أكبر منك فعدّه أباك، وإن كان مثلك فهو أخوك، وإن كان أصغر منك فاحسب أنه ابنك .

فهذا ما سأل سيدنا علي ابنه عن أشياء من المروءة. قال القاضي أبو الفرج : ففي هذا الخبر من الحكمة وجزيل الفائدة ما ينتفع به من راعاه، وحفظه ووعاه، وعمل به وأدّب نفسه بالعمل عليه، وهذّبها بالرجوع إليه، وتتوفَّر فائدته بالوقوف عنده.

وفيما رواه أمير المؤمنين وأضعافه عن النبيِّ صلى اللهُ عليه وآله وسلم ما لا غنى لكلِّ لبيب عليم، ومدرهٍ حكِيم عن حفظه وتأمله، والمسعود من هدي لتقبله، والمجدود من وفِّق لامتثاله وتقبله.

لازم المروءة (الكرم): قال صاحب كتاب إيضاح أسرار علوم المقربين: (وينبغي للعبد أن يراعي مرؤته، فإن كان في طباعه كرم فليزدد منه، وليحافظ عليه، وإن كان في طباعه شح فليجاهد نفسه، وليتخلق بأخلاق ذوي المرؤات وليتشبه بهم فإن للمجاهدة تأثيراً بيناً في الأخلاق. والمروءة طريقة حسنة يحبها الله وهي شعار الصالحين فإن الله كريم يحب الكرم ويكره اللؤم ودناءة النفس، وقد قيل: فاجر سخي أحب إلى الله من قارئ ليئم) اهـ .

ولأهل الكرم ثلاث مراتب :

١) **الكريم:** وهو من يعطي على قدر الطلب .

٢) **السخي:** وهو من يعطي زيادة على قدر الطلب، حكي أن امرأة سألت الليث بن سعد رحمة الله عليه شيئاً من عسل فأمر لها بزق من عسل فقيل له إنها كانت تقنع بدون هذا فقال إنها سألت على قدر حاجتها ونحن نعطيها على قدر النعمة علينا .

٣) **الجواد:** وهو من يعطي قبل الطلب، فعن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أجود الناس بالخير، وكان أجود

ما يكون رمضان حين يلقاه جبريل وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن فلرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة)[1].

قال صاحب الإيضاح: (فليحذر العبد أن يتخلق بأخلاق اللئام، فيتعرض بذلك لمقت الله، ولا يزداد بأعماله من الله إلا بعداً) اهـ .

ولأهل اللؤم ثلاث مراتب :

١) **البخيل:** وهو من يمنع غيره من خيره ورفده .

٢) **الشحيح:** وهو من يبخل على غيره وعلى نفسه . قال أبو عبد اللهُ الروذباري: أقبح من كُل قبيح صوفي شحيح.

٣) **اللئيم:** وهو أن يكون مع شحِّه كارهاً للخيرات أن تصل إلى أحد ، وربما يكون ساعيا في منعها .

قال صاحب الإيضاح: (واعلم أن الشح تلازمه صفتان رديئتان قلّ أن يفوت الشحيح ضعف العقل وقسوة القلب، **أما قسوة القلب** فلا تكاد تنفك عمن استولى عليه هذا الخُلق وأعرق فيه، **وأما ضعف العقل** فلأنا قد قررنا أن العقل هو صحة التمييز ، وثمرته النظر في العواقب، فلو كان الشحيح المسكين ذا تمييز ونظر صحيح لما اختار لنفسه هذا الخلق الذميم، واحتمل ما يلحقه من المذام والملام والآثام، وفوّت نفسه لذة المروءة والاهتزاز للمكارم، والفضيلة

(١) رواه البخاري ومسلم.

الجليلة دنيا وأخرى من إدخال السرور على ذوي الضرورات الأخيار المستورين.. ويلزم من الشح أيضاً سوء الظن بالله، لأنه لا يثق بربه أنه إذا أخرج شيئاً أن يعوضه الله عنه، بل تسوِّل له نفسه الخبيثة أنه إذا أخرج شيئاً ذهب منه، فليس لهذا الشحيح المسكين ساعة يصفو قلبه مع ربه، باطنه أبداً خراب، ولا يزال نافراً مستوحشاً، سيءُ الظن بالناس، فلا يزال متنكّراً للإخوان، من لقيه يفر منه، يقول: عساه يطلب مني شيئاً، فلا يزال حذراً خائفاً، باطنه مظلم، وقلبه خراب، نعوذ بالله من هذه الحالة الرديئة) اهـ .

من خوارم المروءة والفتوة:

من الخوارم ما هو محرم، ومنها ما هو مكروه، ومنها ما هو مناف للأدب والحشمة وإن لم يكن مخالفاً للشرع، وإليك طرفا منها:

١) ليس من الفتوة أن تربح على صديقك، روى ابن عساكر عن ابن عمرو: (ليس من المروءة الربح على الإخوان)، قال بعضهم: كان فتى يسمى أحمد بن سهل التاجر، وقد اشتريت منه خرقة بياض، فأخذ الثمن رأس ماله، فقلت له: ألا تأخذ ربحا؟، فقال: أما الثمن فآخذه ولا أحملك منه لأنه ليس له من الخطر ما أتخلق به معك ولكن لا آخذ الربح إذ ليس من الفتوة أن تربح على صديقك.

٢) الأكل في الطريق أو الأسواق لغير ضرورة.

٣) استخدام الضيف وتكليفه بالعمل روى أبو نعيم عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله قال: (ليس من المروءة استخدام الضيف). وقال عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز: (قال لي رجاء بن حيوة: سهرت مع أبيك ليلة، فجفَّ القنديل من الدهن، فقلت: يا أمير المؤمنين، لو أمرت الغلام فصبَّ في القنديل من الدهن، فقال: قد دأب يومه، وإنَّما أخذ في نومه الساعة، قلتُ: أفلا أقوم أنا فأصبُّ في القنديل من الدهن؟، قال: لا، فقام هو فصبَّ في القنديل من الدهن ثمَّ رجع ثمَّ قال: قمتُ وأنا عمرُ بنُ عبد العزيز ورجعت وأنا عمر بنُ عبد العزيز، يا رجاء، إنه ليس من مُرُوءةِ الرجل استخدام ضيفه)[1].

٤) السخرية من الناس، قال ابن قدامة رحمه الله : " وأما المروءة فاجتناب الأمور الدنيئة المزرية به أو يتمسخر بما يُضحك الناس به".

٥) الكلام بغير العربية لغير حاجة، روى أبو بكر بن أبي شيبة في المصنف عن عمر رضي الله عنه قال: "ما تكلم الرجل الفارسية إلا خبَّ- خادعَ - ، ولا خبَّ إلا نقصت مروءته " .

٦) سؤال الناس لغير حاجة ، قال ابن قدامة رحمه الله: " فمن كان أكثر عمره سائلا، أو يكثر ذلك منه، فينبغي أن ترد شهادته ".

٧) المزح في غير وقته ، قال ابن عباس رضي الله عنهما " يا بني : لا تمازح السفهاء فتسقط كرامتك ولا اللئام فتذهب مروءتك " .

(١) الزهد لأحمد ابن حنبل.

٨) اللهث خلف الدنيا والتملق لأهلها ، روي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه: (ليس من خلق المؤمن الملق) .

أسباب خوارم المروءة :

١) الجهل . ٢) ضعف التمييز . ٣) قسوة القلب . ٤) التعصب للعادات والعرف الفاسد . ٥) مجالسة أهل السوء والفساد .

اكتساب المروءة :

١) بالاعتزاز بالله ودينه، قال اللهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[المنافقون: ٨]، وهو أن يصون الإنسان نفسه عن الأمور التي تشينه في دينه ومرؤته، قال الشاعر :

كريم له نفسان نفس عظيمة تنزِّهه عن كل أمر يشينه
ونفس لها عن ساحة الكبر مصرف فيظهر منه للأخلاءِ لينه

٢) بأن لا يأتي بفعل ما يذمه بلسانه ، ولا يظهر من نفسه ما يكرهه من غيره .

٣) أن يتعلّم المروءة من الموصوفين بأضدادها فيدِّرب نفسه على المروءة بما يلاقي من سوء غيره ، وكان ليحي بن زياد الحارثي غلام سوء فقيل له لِمَ تمسكه فقال : لأتعلّم عليه الحلم .

٤) أن يكون مع الناس خصما على نفسه، روي أن سيدنا علي ابن أبي طالب كرّم الله وجهه دعا غلاما، فلم يجبه، فدعاه ثانياً وثالثاً،

فلم يجبه، فقام إليه فرآه مضطجعاً، فقال: ألا تسمع؟، قال: بلى. قال: فما حملك على ترك إجابتي؟، قال: أمنت عقوبتك فتكاسلت. فقال له: امضي، فأنت حر لوجه الله.

وقالت امرأةٌ لمالك ابن دينار رحمه الله: يا مرائي . فقال: يا هذه وجدتِ اسمي الذي أضلّه أهل البصرة .

٥) أن لا يسامح نفسه في ترك الاجتهاد وأن لا يخّل بخير تعوّده ولا يرخص لها في شر ارتكبه، فتعاطي صغير الذنب يفضي إلى ارتكاب الكبير، والإخلال بقليل الخير يؤدي إلى الإخلال بكثيره، وذلك كما قال الشاعر:

وأزرق الفجر يبدو قبل أبيضه وأول الغيث قطر ثم ينسكب

الطريق إلى التفتي :

١) علو الهمة والنظر إلى معالي الأمور، وتجنب سفاسفها، وفي الحديث : «إنّ اللهَ تعالى جَوَادٌ يحِبُّ الجُودَ ويحِبُّ معَالِيَ الأَخْلاقِ ويَكْرَهُ سَفْسافَها» أخرجه عبد الرزاق في مصنفه.

٢) الميل إلى العدل وصحة الأعمال المفضية إلى طلب الفضائل .

٣) تنزيه النفس عن نقائصها وصيانتها عما يشينها في دينها .

٤) مجالسة أهل المروءة الفتيان، الذين إذا جالستهم رفعوك وإذا فارقتهم حفظوك .

٥) اختيار الخلوة والعزلة على الانبساط والصحبة عند فقد المربين، فعن يحيى بن معاذ رحمه الله قال: لكل شيء حصار، وحصار النفس الخلوة، وترك معاشرة الخلق، فإنه من لم يكن معك، فهو عليك والمعينون قليل، والزمان غدار .

وقال رجل لفتح الموصلي رحمه الله: أوصني. فقال: اخل بنفسك واعتزل الناس، يسلم لك دينك ومروءتك.

الخاتمة

قيل لسفيان بن عيينة رحمه الله: قد استنبطت من القرآن كل شيء فأين المروءة في القرآن؟، قال في قول الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، ففيه المروءة وحسن الآداب ومكارم الأخلاق، جمع في قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ صلة القاطعين والعفو عن المذنبين والرفق بالمؤمنين، وفي قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ صلة الأرحام وتقوى الله تعالى في الحلال والحرام ، وفي قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، الحض على التخلق بالحلم والإعراض عن أهل الظلم والتنزه عن منازعة السفهاء ومساواة الجهلة وغير ذلك من الأفعال الحميدة والأخلاق الرشيدة .

وسئل سفيان الثوري عن المروءة ماهي؟، فقال: الانصاف من نفسك والتفضل قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ وهو الإنصاف ﴿وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]، وهو التفضل.

ولا يتم الأمر إلا بهما ألا تراه لو أعطى جميع ما يملك ولم ينصف من نفسه لم تكن له مرؤة؛ لأنه لا يريد أن يعطي شيئاً إلا أن يأخذ من صاحبه مثله ، وليس مع هذا مرؤة .

ومن خاتمة كتاب آداب سلوك المريد للإمام عبدالله بن علوي الحداد رحمه الله تعالى ذكر فيها شيئاً من أوصاف المُريدين إلى أن قال: (المريدُ من لا تسترقُّهُ الأغيار ولا تستعبدُهُ الآثار، ولا تغلبُهُ الشَّهوات ولا تحكم عليه العادات، كلامه ذكر وحكمة، وصمته فكرة وعبرة، يسبق فِعلُهُ قَولَهُ وَيُصَدِّقُ عِلمَهُ عَمَلُهُ، شعاره الخشوع والوقار، ودثاره التواضع والانكسار، يتَّبعُ الحقَّ ويؤثره، ويرفض الباطل وينكره، يحب الأَخيار ويواليهم، ويبغض الأشرار ويعاديهم، خُبْرُهُ أَحسنُ مِن خَبَرِهِ، ومعاشرته أطيب من ذكره، كثير المعونة، خفيف المؤونة، بعيد عن الرعونة، أمينٌ مأمون، لا يكذب ولا يخون، لا بخيلا ولا جبانا، ولا سبابا ولا لعانا، ولا يشتغل عن بُدِّهِ، ولا يشحُّ بما في يده، طيِّب الطويَّة، حسن النيِّة، ساحته من كل شر نقية، وهمَّته فيما يقربه من ربه عليَّة، ونفسه على الدنيا أبيَّة، لا يصرُّ على الهفوة، ولا

يقدم ولا يحجم بمقتضى الشهوة، قرين الوفاء والفتوَّة، حليفُ الحياء والمروَّة، ينصف كل أَحد من نفسه ولا ينتصف لها من أحد، إن أعطيَ شكر، وإن مُنع صبر، وإن ظَلَمَ تَاب واستغفر، وإن ظُلِمَ عفا وغفر ..) اهـ .

والحمد لله رب العالمين أولاً وآخراً ظاهراً وباطناً وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين وسلّم تسليماً كثيراً.

محتويات الكتاب

تم بحمد الله